العربي الناظر إلى الغرب
عالم موضوعي، مخطّط مقتدر أم غوغائي منفعل

نجلاء حمادة

بالرغم من تقبّل الإنسان المعاصر للتناقض كصفة ملازمة للواقع المادي (كما أقنعنا فلاسفة أمثال هيغل وماركس)، وبعد أن وسع صدر فهمنا للذات الإنسانية، بحيث غدونا نقرّ بإمكانية تعارض الذات مع نفسها، كأن تحبّ والديك في وعيك وتكرههما، أو تحبهما وتكرههما في الوقت نفسه، في لاوعيك (فرويد وأتباعه وكذلك معارضوه من المحللين النفسيين)، ما يزال واحدنا يتململ ويعاني من ضيق وضياع عندما يجد في ذاته الواعية تجاذباً وتناقضاً حيال موضوع أو كيان بعينه، كما هو الحال في نظرتنا إلى الغرب وموقفنا منه. فطبيعة تعامل الوعي مع الواقع الإنساني تعتمد استخدام لغة مفهومة وتواصل «منطقي» مع الآخرين وتتطلّب اتّخاذ الموقف الواضح والمنسجم مع ذاته. لذلك يحار الشرقي العربي إزاء الغرب الذي يثير فيه الكثير من الآراء والمشاعر المتضاربة؛ فهو المنكّل والمنقذ، الحاكم والعدو، الذي نتطلّع إليه كمثال في بعض الأمور والذي نمتعض منه ونخافه وقد نزدريه في أمور أخرى. وسبب هذا الانفصام في نظرتنا إلى الغرب ينبع من أصلين أساسيين: أصل سياسي وآخر مادي اجتماعي.

فواقع السلطة الاستبدادية في مجتمعاتنا وطغيانها على معظم الفئات يجعلنا ننظر إلى تعامل السلطة الغربية، المنفتح نسبياً، مع مجتمعاتها على أنه منحى نطمع في استيراده أو محاكاته ونتطلّع إلى العيش في ظل ما يماثله؛ إلاّ أن المواقف السياسة لمعظم دول الغرب حيال قضايانا العربية أو الإسلامية، تلك المواقف المتحيّزة سلباً والمتجاهلة لحقوقنا الإنسانية والجزائية والمسيئة لكراماتنا، تخيفنا من اتّساع سطوة الغرب وتغضبنا من بعد مواقفه منّا عن العدالة وعن المُثل التي ينادي بها في مجتمعاته. نحن نكره

أنظمتنا لكننا نخاف على كيان يحتويها لخوفنا على أنفسنا؛ ونحن كذلك نُعجب بالأنظمة الغربية ولكننا نريد لها الاندحار لأنها تهدّد بقاءنا. وبسبب التباس مواقفنا حيال الغرب (كما حيال أنفسنا)، نقع في الحيرة والبلبلة في اتّخاذ المواقف من الغرب (ومن مجتمعاتنا) وفي التعبير عن هذه المواقف. فإعجابنا بنوعية السلطة في الغرب وامتعاضنا من نوعية السلطة عندنا من شأنهما أن يؤديا بنا إلى اتّخاذ موقف مساند للغرب، وطبيعة انتمائنا ومواقف الغرب المعادية لنا تؤدي بنا إلى اتّخاذ موقف مناوىء له.

ونجد عندنا التباساً مماثلاً حيال الغرب من حيث نوعية الحياة المادية والاجتماعية التي ينادي بها وتسود فيه. فنحن نعجب باستقلالية الغربي وبانفتاح المجالات العلمية والعملية أمامه وننبهر بحصول الفرد في المجتمعات الغربية على الكثير من الرفاهية ومن الخدمات والرعاية يوفّرها له القطاع العام، لكننا ننتقد برودة العلائق والرباطات العائلية في تلك المجتمعات ونخاف إن تغرّبت أنماط حياتنا أن ينتهي بنا المطاف كما ينتهي بكثيرين منهم، في مآوي العجزة أو في وحدة تامة، حيث يوافي الأجل المسنّ وهو بمنأى عن الأولاد والأحفاد. نحن نعجب بانتظام الغربي وبما يتمتّع به من طمأنينة إذ ينتظر دوره للحصول على تذكرة أو مؤن أو خلافهما واثقاً أن أحداً لن يزاحمه أو يحاول أن يتخطّاه، ولكنّنا نبقى غير متيقنين من أفضلية ما يسود في الغرب من قيم مادية تحكم الحياة والعمل؛ إذ نرى أنه كثيراً ما تأكل الحياة العملية وقت الفرد وجهده برمّتهما، فيكون مروره الإنساني في الحياة ميكانيكياً قليل التعاطي مع البعدين العاطفي والروحي. فلا الاستقلالية والفردية تفسحان له في المجال للسعادة التي لا تكتمل في نظرنا إلاّ عندما تتجاوب أصداؤها بين الفرد وبين من يألفهم ويألفونه، ولا القيم المادية التنافسية تترك له فسحة من الوقت للفرح واللهو الضروريين لصحته الجسدية والنفسية أو حيّزاً من تقدير لقيم الاكتفاء والرضى اللذين ما تزال مجتمعاتنا تقرّ بجدواهما.

إذن فتقييمنا للغرب يتميّز بمدّ وجزر يحار واحدنا معهما أي موقف يتّخذ إزاءه. وإلى جانب التناقضات التي وإن صعب تعاطي العقل والمنطق اللغوي معها فإن هذا التعاطي يبقى غير مستحيل إن أوليناه ما يلزمه من التدقيق والتفنيد، يحكم نظرتنا إلى الغرب عامل الخوف الذي يشكّل حاجزاً يستحيل معه التفكير العقلاني المتّئد، بحسب جون بول سارتر، أو يقف حائلاً بين الإنسان وبين الحكم العادل أو البريء، حسبما يصف نيتشه. فالعربي الذي يرى قوّة الغرب ويدرك عداء الغرب له ومحاربته لعناصر بقائه مصاب بالهلع على مصيره في عالم يحكمه الغرب، أو تحكمه أميركا على وجه التحديد، وهي البلد الغربي الأكثر تحيّزاً ضدّ العرب وإلى جانب أعدائهم. ومحاربة الغرب للعرب لا تظهر فقط باقتطاع فلسطين لتسكين شعوره بالذنب الذي ولّده عنده اضطهاده المزمن لليهود، بل تظهر أيضاً بالقصف المتكرّر للعراق وبالحصار الطويل الأمد المفروض عليه وعلى كلّ من ليبيا والسودان وبالاستيلاء غير المباشر على تسويق النفط ثم على معظم الأموال التي تدرّها «تجارة» النفط هذه وبتقبيح صورنا في الإعلام وحتى في التناول «الأكاديمي» لحضارتنا وطبعنا ودیننا وتاريخنا (أنظر

«الاستشراق» لإدوارد سعيد ـ Edward Said, Orientalism).

والهلع المنبعث من الخوف على البقاء، كما يصف سارتر في «نقد الفكر الديالكتيكي» (Jean Paul Sartre, Critique of Dialectical Reason, the Fused Group) يـذيـب الأفراد الموحّدي المطلب والمصير، والمتواجدين في الموقع نفسه، في «جماعة منصهرة» (fused group) تسلك سلوكاً جماهيرياً عنيف الوقع ومنقاداً لأي شعار يطلقه أحد المنصهرين. وفي جماعة كهذه يتعامل المنصهر أو المنفعل مع الوضع وكأنه «آخر» أو كأنه «فريق ثالث»، حسب تعبير سارتر؛ بمعنى أن الآراء العقلانية والأمزجة الفردية تذوب في بوتقة المشروع الجماعي والمصيري الذي يجد الفرد نفسه منخرطاً به. ويبدو أن ما يرمي إليه سارتر من هذا الوصف لـ «الجماعة المنصهرة أو المنفعلة» هو اللّفت إلى أن التعاطي بين الناس في بوتقة هكذا جماعة يكون غير تعاطي الفرد المستقل والواعي وغير تعاطي من يعتبر نفسه مسؤولاً كـ «فريق أوّل» إزاء «فريق ثان». فتطغى في هذا النوع من الجماعات غوغائية جماهيرية تتميّز بمحاكاة الناس لسلوك بعضهم البعض وبترجيع بعضهم صدى شعارات يرفعها آخرون من أفراد الجماعة أو اتّباع قرارات يتخذها هؤلاء، بحيث يكون كل منهم «فريقاً ثالثاً» فتضيع المسؤولية ويغيب الرأي الرصين. ووصف سارتر هذا لسلوك الأفراد ضمن «جماعة منصهرة» ينطبق إلى حدّ بعيد على كثير ممّا يُقال عن الغرب في العالم العربي، عندما تُطلق الشعارات غير العقلانية فتتلقّفها الجماهير دون تمحيص ولا رويّة. ومن الأمثلة على الانفعالية وقلّة النضج (سلوكنا كفريق ثالث) في تناولنا للغرب تسميته أو تسمية جزء منه بالـ «شيطان»، ومنها أيضاً المقولات المتداولة عن انحلال نسائه أو عن عدم عناية الأهل فيه بأبنائهم، مع التظاهر بأننا على نقيضه «إلّهيّون» وشرفاء ومتفانون من أجل أبنائنا. هذا بالرغم من أن المنطق والواقع يجدان في كل من الغرب والشرق عناصر من «الشيطانية» و «الألوهية»، من الشرف ونقيضه ومن الحدب والتقاعس عنه. بل قد يكون التباين بين نظرة جماهيرنا الخائفة إلى الغرب وبين نظرة بعض حكّامنا ومثقفينا إليه أساسه أن بعض هؤلاء المتقربين من الغرب أو المستفيدين منه يتخطون الخوف في علاقتهم به فلا يعودون يسلكون إزاءه سلوك «الفريق الثالث»، ومن هنا فإن نظرتهم إلى الغرب ووصفهم له قد يكونان أكثر اتّئاداً وموضوعية، إن لم يشُب تلك النظرة وهذا الوصف التملّق والمحاباة من أجل المنفعة الخاصة. لكنّ التحيّز الإيجابي هنا هو غير التحيّز السلبي «الجماهيري» الموجود عند «الجماعة المنصهرة». فالأوّل واع، قد يكون ماكراً وهادفاً وقد يكون مبنياً على اقتناع حقيقي، والثاني انفعالي يتراكض أصحابه بعقول نصف مغمضة وبقلوب تتسارع فيها ضربات الانفعال بالخوف من الفناء.

ونيتشه الذي آمن بتفوّق الغريزة على العقل في الذكاء يرى، خلافاً لسارتر، أن الخوف يشحذ المكر ويعبّىء التحايل المبرمج بعد أن يقضي على البراءة والموضوعية والصدق. فلو طبّقنا وصفه لسلوك الخائفين فاقدي السلطة، كما هو حالنا، لكان علينا القول إن تحيّزنا سلباً أم إيجاباً في الكلام على الغرب يعكسان التحايل والتخطيط اللذين ذكر نيتشه أنهما

يميّزان تعاطي الخائف مع من يخافه. فنيتشه يرى أن الخائف على مصيره، إذ يتحكّم به القوي على هواه، يعمد إلى التحايل وإلى استنباط الأساليب التي من شأنها أن تحدّ من قوّة القوي أو التي يؤمّن بها الضعيف الخائف على بقائه. وهو يضيف أن كلاً من القوي المخيف والضعيف الخائف يشوّه حقيقة الآخر ولكنّ الثاني يفعل هذا بتطرّف وحقد أكبر ممّا يظهره الأوّل Friedrich Nietzsche, The (Genelogy of Morals) 1967, 377. والتحايل والاستنباط المغرض يظهران في بعض وصفنا للغرب، إذ يصفه بازدراء بعض اللاّئذين بالدين وبعض المبالغين في الاعتداد الاستعلائي بشرقهم، المتخذين من أي من الموقعين برجاً ينظرون منه إلى الغرب نظرة تبخسه حقّه. من بين أولئك محمّد الصالح بن مراد ومرتضى مطهّري المبالغان في وصف تصدّع الحياة العائلية في الغرب وروعة الحياة العائلية في كنف الإسلام (بن مراد ١٩٣١، ١٨٦ ـ ١٨٧ ومطهّري، تعريب ١٩٩١، ١٨٢ ـ ١٨٤). ومنهم أيضاً محمد مهدي الأصفي القائل إن المرأة الغربية تطلب الطلاق من زوجها بسبب خلاف على لون رداء (١٩٨١، ٢١٨ ـ ٢٢٠) ومطهري المدّعي أن خلافاً على فيلم سينمائي أو رفض الزوج تقبيل كلب زوجته هي أسباب تؤدي إلى الطلاق في الأسر الأميركية (١٩٩١، ٢٧٣). ويطنب بعض هؤلاء في التشديد غير المقنع على حبّ الرجل المسلم لزوجته، وكأن المسلم هو غير بقية الأزواج أو كأن لزوجته سحراً ليس لغيرها من النساء! ومن غير الموضوعيين في تصوير الغرب توفيق الحكيم الذي يركّز في «عصفور من الشرق» (١٩٣٨) على استخدام الغرب للعلم من أجل التسلّح، متناسياً ما أنتجه فيه العلم من أمور أخرى تخدم الإنسانية من وسائل معالجة الأمراض ومن مكننة تسهّل الأعمال اليدوية ومن وسائل اتّصال ونقل. وقد يتّخذ «المكر» في درء الخوف وجهة التقرّب من الغرب، خاصة عند من هاجروا إليه أو لاذوا بقوّته من ضعف مجتمعاتهم وانغلابها على أمرها، محاولين الانتقال من صفوف «الخائفين» إلى الاستكانة بحمى «المخيفين». وقد يكون بين هؤلاء مقتنعون فعلاً بأفضلية الغرب وصلاحه. والفريقان يبالغان في إظهار حسنات الغرب ويبالغان أيضاً في إظهار نقائص العالم العربي. فهشام شرابي يصوّر الغرب على أنه إنساني النزعة وعلى أنه مورد المرجعيات الفكرية التي لا غنى عنها حتى لمن ينتقده من العرب. وهو يستشهد ببول شارني للقول إن العالم العربي ليس لديه ما يورّده إلى الغرب سوى بعض أصناف الطعام وبعض الموسيقى (مداخلة لشرابي بعنوان «كيف نفهم الغرب؟»، ندوة المفكرين العرب في المهجر، باريس ١٧ ـ ٢٠ ديسمبر، ١٩٨٦)؛ وعبد الكبير الخطيبي يزكي تراث الغرب وتقنيته، مسمياً المعرفة العربية «ثرثرة» (النقد المزدوج، ١٩٨٣، ص ١٨).

وممّا يدعم القول بأن آراء «الجماعات التي هي في حالة «انصهار» بحسب سارتر، وأن أقوال وسلوك الفاقدين للسلطة، بحسب نيتشه، هي آراء منبثقة من خوف طاغ على البقاء وليس من رأي موضوعي، ما تظهره المقارنة بين التعبير عن نقد الغرب أو الإعجاب به في الفترة التي سبقت وعد بلفور وقيام دولة إسرائيل وبين ما يوازي هذا التعبير من انكماش عن الغرب أو انبهار به في الوقت الراهن. فهذه المقارنة تظهر أن النزعة العاطفية الغرائزية قد

قويت بنسبة كبيرة. فعلى سبيل المثال، شتّان بين «تغريب» قاسم أمين أو فرح أنطون المتّئد والمحترم للذات وبين تغريب فؤاد العجمي أو حنا بطاطو أو جورج طرابيشي المتمادي والمقرون بالحكم المبرم على الأنماط الأصيلة في المجتمع العربي أو على العقل العربي بشكل عام. كذلك فالفرق شاسع بين نقد التعاطي بين الجنسين في المجتمع الغربي عند محمد عبده أو الطهطاوي وبين نقد هذا التعاطي من قبَل غلاة أمثال الذين ذكرتهم آنفاً. ومع أن الأمثلة تُظهر وجود بعض المغالين في الزمن السابق أمثال توفيق الحكيم وبعض المتّئدين في الزمن الراهن مثل السّيد محمد حسين فضل الله، إلاّ أنه يبدو أن المنحى العام يُظهر أن السابقين كانوا أكثر موضوعية وعقلانية وأن اللاحقين هم أكثر عاطفية واندفاعاً، أو أكثر «مكراً» في تعاليهم على الغرب أو في تزلّفهم له.

ويبدو من مراجعة سريعة وغير شاملة لما كتبته مجتمعاتنا عن الغرب أن وصف سارتر لتأثير الخوف ينطبق على تناولنا للغرب أكثر ممّا ينطبق عليه وصف نيتشه. فالذكاء وحسن الحيلة في معالجة خوفنا من الغرب لا يظهران إلاّ في شذرات قليلة. والموقف السائد عندنا حيال الغرب تنقصه الاستراتيجية والتخطيط الطويل الأمد؛ وهذا ما يظهر في قصر باع «اللوبي» العربي وفي تميّز غالبية الكتابات العربية المتناولة للغرب بعدائية صبيانية أو أساليب استمالة يائسة لا تنطلي على أحد، فبالإضافة إلى التناقض الذي نشعر به تجاه الغرب ممّا يسربل العقل، يبدو أن أن كلاً من القوّة والظلم، من جهة، والإعجاب والرغبة، من جهة أخرى، يؤججان العواطف ويغذيان غرائز الكراهية والعنف (Thanatos) أو الحبّ والنزعة إلى الاتّحاد (Eros) دون أن يؤديا إلى تذاكٍ غريزي كالذي ذكره نيتشه. فما يقوله نيتشه عن ذكاء الغرائز لا يبدو منطبقاً على واقع تعاطينا «الغريزي» مع الغرب، إلاّ فيما ندر.

ولو استعنّا بما يقوله فرويد (Freud) عن هاتين الغريزتين لفسّرنا عدم نجاح تخطيطنا إزاء الغرب بكون هذا التخطيط تغلب عليه سيطرة غريزة واحدة، مع أن الفعالية تكون في تمازج الغريزتين بحيث لا تطغى الكراهية ولا يحكم الحبّ السّاحة منفرداً. فالغريزة، كما يقول سيد التحليل النفسي تكون فاعلة عندما تستقطب الطاقة الآتية من الحب بالإضافة إلى القدرة على التغيير التي تُستمدّ من الكراهية؛ ونحن نبدو في مواقفنا من الغرب إمّا مسربلين كرهاً منكفئين مقاطعين حاقدين لاعنين، وإمّا ذائبين حباً مرتمين في أحضان الحبيب دون شروط تحفظ حقوقنا. والإفراط في كلّ من الكره والحبّ يؤدي بنا ليس فقط إلى نظرة غير واقعيّة إلى الغرب بل أيضاً إلى إيذاء أنفسنا وتسهيل اندحارنا في وجه هذا العدو/ الحبيب المتفوّق أصلاً علينا بالقوة والاقتدار وبالعزوف عنّا والاستهتار بنا. فكرهنا المتطرّف للغرب، خاصة في وجه تفوّقه وسيطرته على الكوكب الذي نعيش عليه، يرتدّ علينا ليصبح نزعة نحو تدمير الذات. ومن ظواهر هذا الوضع المَرَضي ما نراه من عدائية العرب لبعضهم أو لبعض فئات مجتمعهم، كالنساء مثلاً، وهذه العدائية إذ تحول دون تعاوننا تزيد من ضعفنا. كذلك فعندما تسود نزعة الحب نحو الغرب وتواجه بما يطغى في الإعلام الغربي وفي مناحي «استشراقه»، التي لا بدّ وأن تُترجم في لغة الغريزة كعزوف الحبيب ونفوره، تؤدي

عندنا إلى نظرة دونية إلى الذات وكره لها. ومن عواقب تلك النظرة وهذا الكره انكفاء العربي إلى دائرة لا تتعدّى المشاغل اليومية من مأكل ولهو وجنس وتحضير لحياة أخرى تدور في أفلاك لا تتعدّى هذه الحدود! فلو استنرنا بما يقوله هيغل (Hegel) عن كون الوعي للذات منوطاً بديالكتيكية تعكس وعي الآخر لها (Phenomenology of Spirit, trans. 1952, 178, p. 111)، ولو تذكّرنا وصفه لدرجات هذا الوعي وقوله إن أدناها هو وعي الذات على أنها كيان مادي (Ibid, # 176, p.110)، لفسّرنا دوران العربي أو المسلم في الزمن الراهن في فلك عملياته الجسدية على أنّه انعكاس لنظرة الآخر الدونية له ممّا يجعل وعيه لذاته يتقهقر إلى أسفل الدرجات الممكنة، وهي درجة وعي الذات ككيان مادي بحت. وهذا التقهقر في الوعي يؤدي بدوره إلى طغيان الذعر من الغرب لتهديده الكيان الجسدي الذي بتنا نراه كل كياننا وليس جزءاً منه. فعندما يبرأ العربي من حبّه غير المتبادَل هذا، يمكنه من خلال التحاور مع آخرين يبادلونه الحبّ والاحترام من أن يعي ما في ذاته من عقلانية وروحانية. وهذا الوعي من شأنه أن يخفّف من ذعره من تهديد الغرب لكيانه المادي أو الجسدي، إذ لا يعود يرى في هذا التهديد تهديداً لكلّ كيانه. ومن شأن هذا الوعي أن يهيئ للعربي أساليب للتعاطي مع الغرب غير اللّعن والتبخير، أساليب كالحوار العقلاني أو كالقتال المحافظ على الكرامة. ولعلّه ليس من المصادفة أن المقاتلين والثوريين بيننا هم جماعات متدينة أو ملتزمة بعقيدة، إذ إن نظرة هؤلاء إلى أنفسهم على أنها كيانات أكثر من مادية من شأنها أن تخفف من طغيان الخوف عندهم، وبالتالي من شأنها أن تسمح لهم بالتعاطي مع الغرب بأسلوب من يرى في ذاته كياناً روحياً أو عقلياً أو تاريخياً مسؤولاً، فلا يفقد الأسلوب العقلاني أو العملي ولا يتساهل في الحفاظ على كرامته وقيمته كإنسان يتجاوز المادة ويسمو إلى أبعد منها.

حسب هذا الطرح، لكي تكون نظرتنا إلى الغرب موضوعية إنسانية، حريّة بأن تمدّ جسراً من التعاطي الواقعي والعملي بيننا وبينه، من المجدي ألاّ نتمادى في حبّه طالما أن نظرته لنا تحطّ من نظرتنا إلى أنفسنا؛ ومن المجدي أيضاً ألاّ نتمادى في كرهه حتى لا نفقد فعاليتنا إزاءه، بما في ذلك الفعالية المعرفية. وقد يكون خير مثال على الشق الأوّل من هذا الحلّ رفض الصلح المجحف والمهين الذي يفرضه الغرب علينا طالما ليس لنا من القوّة ولا هو له من الموضوعية ما يسمحان بقيام حوار حقيقي بيننا. وقد يتطلّب الشقّ الثاني مقاومة المدّ الغربي والبعد عنه، قدر الإمكان، بالتعاطي مع حضارات أخرى أكثر موضوعية وعدالة معنا وبإنتاج ثقافة وحضارة خاصّين بنا، مع العلم أن الانكفاء التام عن الغرب في هذا الزمن كاد يصبح مستحيلاً لما له من حضور طاغ ولما لنا من حاجة إلى تقنيته وتقدّمه على صعد مختلفة.

إذا كرهنا الغرب بشكل «موزون» ومبرّر كأن نكره إجحافه في حقنا ونكره تشويهه لبعض أسباب الحياة المتوازنة واستغناءه عن بعض القيم الإنسانية، شرط ألا نحيد كثيراً عن توخي الموضوعية والصدق في التعبير عن كرهنا هذا، يمكننا أن نتفادى الوقوع في تشويه صورته تشويهاً عشوائياً. كذلك فإن للكره «الموزون» قدرة على أن يكون أكثر فعالية، إذ هو

أقدر على الإقناع من الكره العشوائي، كما أنه يظهرنا، نحن الكارهين، بمظهر أليق وأقرب إلى عقول الآخرين وقلوبهم. وإذا تخلّص عشّاق الغرب بيننا من حدّة التمادي في انجذابهم وانخطاف ألبابهم بهذا المعشوق المُعرض والمعادي، يغدو بوسع طاقة الحبّ فينا أن تُستخدم، أو يُستخدَم بعضها، من أجل إنتاج ثقافة وحضارة أصيلتين معبرتين عمّا يعتمل في كياننا. لكنّ المشكلة هنا تكمن في أن الإبداع الحضاري لا يتمّ إلاّ بعد وعي أبعاد الذات المتخطية للبعد المادي مع اشتمالها عليه؛ والتخطي هذا، حسب هذا السياق، لا يتمّ إن بقينا على الافتتان بغرب لا يبادلنا شعورنا نحوه، ولا يتمّ إن بقينا كارهين لذاتنا أو إن بقيت السلطات القامعة عندنا على منعنا من التعاطي الحرّ مع واقعنا نقداً وتحليلاً من أجل تحريكه والتعمّق في إدراكه. فمن أين نبدأ؟ يبدو أنه لا مناص لنا من التحوّل إلى «معشوق» آخر، أو أي كيان إنساني يكون أكثر موضوعية ووداً لنا ممّا يساعدنا على أن نعي كامل إنسانيتنا إذ نراها معكوسة في مرآة نظرته إلينا. ويبدو أيضاً أنه لا خلاص لنا من دون أن نوجّه كرهنا الفعّال أيضاً إلى كلّ ما وكلّ من يحول، من داخل مجتمعاتنا، دون انبعاث الوعي والحيوية التغييرية فينا.

وعندما نعي الأبعاد المتعدّدة لذواتنا ونغدو منتجين حضارياً، نلج الزمن الشامل للإنسانية بما هو زمن نابض ومرتق، بحسب نظرة هيغل لتاريخ الإنسانية. ومن هذا الموقع يخفّ التحيّز البعيد عن العقلانية، سلباً أم إيجاباً، في النظرة إلى الآخر. فمن أجل تصويب نظرتنا إلى الغرب لا يكفي أن ننقد هذا الرأي أو ذاك أو هذه النظرة أو خلافها، ولا يكفي أن نلجم كرهنا أو حبنا المتماديين، إذ إن أصل التصويب يكون بتطوير نظرتنا إلى ذواتنا ومن ثمّ الارتفاع بمستوى التعاطي مع الآخر من حيّز الخوف على كياننا المادي أو الرغبة بحاجات وكماليات من أجل رفاه هذا الكيان إلى حيّز الاهتمام بالكيان الإنساني برمّته، ممّا يوصلنا للتوجّه عملاً وفكراً ومواقفَ نحو الأشمل والأكثر فاعلية وتفاعلاً. وعندما تغدو هذه وجهتنا تصل نظرتنا إلى الغرب وإلى سواه وإلى أنفسنا إلى أرفع مستويات الموضوعية والصدق؛ علماً بأن الموضوعية التامة مستحيلة، رغم أن الاقتراب منها يترادف مع الرّقي والفعالية ومع القدرة على إقناع الآخرين واستقطاب احترامهم وتقديرهم. فلا مندوحة من العقل والاتّزان، رغم مقولة نيتشه إن الغرائز هي الأكثر ذكاء. وعمل العقل يتعطّل عندما تعصف به الغرائز المتطرّفة فتجعله يرى ما تريد ويعمى عن رؤية ما لا تريده أن يراه. ولذا فنيتشه نفسه أقرّ بأن بناء الحضارة لا يتحقّق إلاّ باستكمال عنصري الغريزة التي هي في أساس الخلق والعقل المهذّب والمنظّم لما تتمخّض عنه الغريزة؛ لا بدّ في رأيه من تكافل العناصر الدايونيسيّة (Dionysian) والأبولونية (Apollonian). وتكافل (حضاري) وفاعل في نظرتنا إلى الغرب قد يلزمه العنصر العقلي الأبولوني اللاجم للغرائز. أما العنصر الدايونيزي الغرائزي فيبدو أنه متوافر وإن قلّت قدرته على الخلق والإبداع اللذين تكلّم عليهما نيتشه.

المراجع

المراجع العربية المذكورة في النص:

ـ محمد مهدي الآصفي، «العلاقات الجنسية في القرآن الكريم». النجف: مطبعة النعمان، ١٩٦٨.

ـ محمد الصالح بن مراد، «الحداد على إمرأة الحدّاد». تونس، ١٩٣١.

ـ توفيق الحكيم، «عصفور من الشرق». القاهرة: ١٩٣٨.

ـ عبد الكبير الخطيبي، «النقد المزدوج»، تونس، ١٩٨٣.

ـ هشام شرابي، «كيف نفهم الغرب؟» ندوة المفكرين العرب في المهجر. باريس: ديسمبر، ك١ ١٩٨٦.

ـ مرتضى مطهّري، «نظام حقوق المرأة في الإسلام»، تعريب حيدر الحيدر. بيروت: الدار الإسلامية، ١٩٩١ (الطبعة الثانية).

المراجع الأجنبية المذكورة في النص:

- Sigmund Freud, «Civilization and its Discontents», Tr. & Ed. James Stratchey. New York - London: W.W. Norton & Company, 1961.
- George W.F. Hegel, «The Philosophy of History», Tr. J. Sibree. Buffalo - New York: Prometheus Books (Great Books in Philosophy), 1991.
- W.S. «Phenomenology of Spirit», Tr. A.V. Miller. Oxford, New York, Toronto, Melbourne: Oxford University Press. 1977.
- Friedrich Nietzsche, «Genealogy of Morals», Tr. Walter Kaufmann. Copy right 1967 by Random House Inc., United States of America: Vintage Books Edition, 1989.
- Edward W. Said, «Orientalism», First Published by Routledge & Kegan Paul LTD. 1978. England: Clays LTD. (Pinguin Books), 1995.
- Jean Paul Sartre, «Critique of Dialectical Reason», Volume One, TR. Alan Sheridan-Smith, Ed. Jonathan Ree. London - New York: Verso, 1985 (First Published 1960).